كامل كيلانى

قصص علميّة

العنكب الحزين

الطبعة العاشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١ – حِوار الأَخويْن



خرجَ «صَفاءُ» و «سُعادُ» يَتَنَزَّهانِ – عَلَى عادَتِهما – فى الدَّسْكرَةِ . وما زالا فى تَجْوالِهِما حتى تَعِبا مِن المشْى ، فجلَسا فى الحَديقةِ ، واستَلْقَيا على أَرْضِها السُّنْدُسِيَّةِ البَهيجةِ. فاسترْعَتْ بصرَهُما عَنْكبةٌ جميلةُ الشكلِ ، وأَدهشَهُما ما رأَياهُ من هَندَسَةِ بَيتِها ،

ودِقَّةِ خُيوطِهِ ، وبراعةِ نَسْجِهِ . وظَلَّا يَتَأَمَّلانِ بَيتَ العَنْكَبُوتِ الحاذِقةِ ساعةً ، ويُنْعِمانِ النَّظَر والفِكْرَ فى دقائِقِ هٰذه النَّسَّاجةِ الذكيَّةِ ، الصَّناعِ الْيَد ؛ ويُطيلانِ التَّأَمُّلَ فى بدائع المُهَنْدِسَةِ البارعَةِ المتفننةِ . وقدِ امتلأَتْ نَفساهُما دَهَشاً وإعجاباً بِصَبْرِ هذِهِ الْحَشَرَةِ الضَّئِيلَةِ ومُثابَرتِها .

وصاحتْ « سُعادُ » :

« تبارَكَ الخَلَّاقُ العظيمُ !

أَلَيْسَ مِنَ العَجَبِ الْعاجِب أَنْ تَهتَدِىَ هٰذِهِ الحشرةُ الضَّئيلةُ إلى دَقائقَ من أَسرار الهنْدَسةِ ، يَحارُ فيها الْمُتَأَمِّلُ ويَنْبَهِرُ مِنها المُفكِّرُ ، ويقِفُ أَمامَها العَقْلُ مَدهوشاً ؟ »

فقالَ « صَفاءُ » : « لَقَدْ تَعلَّمَ الأَقْدَمُونَ مِنْ هٰذِهِ الْمخلُوقَةِ الصَّغيرة ، كَيْفَ يَصْنَعونَ شِباكَهُم وحَبائلَهُم ، ليَصْطادوا بها أَسْرابَ الطَّيْرِ والْحَيَوانِ البَرِّىِّ والبَحْرِىِّ على السَّواءِ .

ولَعَلَّكِ تَذْكُرِينَ قِصَّةَ « الصَّيَّادِ الإفْرِيقِىِّ » الَّذى كانَ يَصْطادُ الوُحوشَ بِرُمْحِهِ ، وكَيْفَ جَرَحَهُ أَحَدُها ، وأَلْقاهُ عَلَى الأَرْضِ.

وكَيف اسْتَرعَى بَصَرَ الصَّيَّادِ ما رَآهُ مِنْ بَراعَةِ أَحَدِ العَناكِبِ فى اصْطِيادِ الذُّبابِ ، ودَهِشَ لِقُدْرَتِهِ العَجِيبَةِ عَلَى نَسْجِ الشِّباكِ والْحَبائلِ المُحْكَمَةِ » .

فصاحَتْ « سُعادُ » : « صَدَقْتَ — يا أَخِي — لَقَدْ ذَكَرْتُ تِلْكَ الأُسْطُورَةَ الْجَمِيلَةَ الآنَ ، وذَكَرْتُ أَنَّ ذٰلِكَ الصَّيَّادَ نَسَجَ شِباكَهُ عَلَى مِنْوالِ العَنْكبِ الذَّكِيِّ ، فاصطاد كثِيرًا منْ أَسْرابِ الوَحْشِ .

ثُمَّ ارْتَقَى فى تقليدِ العَنْكبِ ، فنَسج ثِياباً لهُ ولِزَوْجَتِهِ ولجيرانِهِ ، فأُعْجِبَتْ بالصَّيَّادِ عَشِيرَتُهُ ، واتَّخَذَهُ قَوْمُهُ زَعيماً لَهُمْ وأُسْتاذًا » .

فقالَ « صَفاءُ » : « لا تَنْسَيْ أَنَّه قالَ لِلْمُعْجَبِينَ به :

« إِنَّ أُسْتاذِي ومُرْشِدِي إِلَى هٰذا الِاخْتِراعِ الْجَلِيلِ هُوَ : العَنْكَبُ الذَّكِيُّ الصَّنَاعُ ! »

فقالتْ « سُعادُ » : « صدَقْتَ — يا أَخِي — وَسَأَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ الأَوَّلِ من كتاب القِصَصِ الْجُغْرافِيَّةِ ، الَّذِى سَجَّلَ فيهِ أَبى تِلْكَ الأُسْطُورَةَ الْعَجِيبَةَ ، لِأَقرأَها مرَّةً أُخْرَى » .

فقالَ « صفاءُ » :

« وَلَقَدْ قَصَّ عَلَيْنا أُسْتاذُ الإنشاءِ – فى هٰذا العامِ – أَنَّ مَلِكاً منَ الأَقْدَمِين دَبَّ إلى قَلْبِهِ دَبيبُ الْيَأْسِ ، بَعْدَ أَنْ هزَمَهُ العَدُوُّ ؛ فَجَلَسَ مُطْرِقاً ، حَزِينَ الْقَلْبِ ، مُشَرَّدَ الْفِكْرِ .

وإِنَّهُ لَغارِقٌ فى هُمومِهِ ، إِذْ حانَتْ مِنْهُ التِفاتَةٌ ؛ فرَأَى عَنكبةً تَنْسُجُ خُيوطَها ، وأَبْصَرَها تَقْذِفُ بأَحَدِ الْخُيُوطِ إلى رُكْنِ الْغُرْفَة فَلا يَقَرُّ فيهِ ، فتُعِيدُ الكَرَّةَ ثانيةً وثالثةً ورابعةً بِلا جَدْوَى .

وما زالتِ الْعَنْكَبَةُ جادَّةً فى تَحْقِيقِ غايَتِها ، دونَ أَن يَجِدَ الْيَأْسُ إلى قَلْبِها سَبيلًا ، حتَّى ثَبَتَ الخَيْطُ فى المَرَّةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ . فكانَ ذٰلِكِ النَّجاحُ – بَعْدَ المُثابَرَةِ – أَبْلَغَ دَرْسٍ يُعَلِّمُ المَلِكَ الْمَهْزُومَ فَضْلَ الأَناةِ والصَّبْرِ ، وَيُنْسِيهِ مَرارَةَ الهَزِيمَةِ وَأَلَمَ الْيَأْسِ . فَضاعَفَ مِن هِمَّتِه ، وَقَوَّى منْ عَزْمَتِهِ ، وما زالَ بِأَعْدائِه حتَّى

كُتِبَ لَهُ النَّصْرُ فى الْمَوْقِعَةِ الأَخيرَةِ .

وكانَ الفَضْلُ – فى ذٰلك النَّصْرِ – عائِدًا إِلَى اقْتِدَائِه بِالعَنْكَبَةِ الْجادَّةِ المُجِدَّةِ المُثابِرَةِ !



٢ ـ حِوارُ أُمِّ «قَشْعَمٍ»

فقالَتْ «سُعادُ» :

«ما أَعجبَ أَمر هٰذه المَخْلوقَةِ الضَّئيلَةِ ، الَّتى أَحرَزَتْ ـ عَلَى حَقارَةِ بِنْيَتِها ـ عقلًا كبيرًا ، وجَمَعَتْ حِذْقاً ومَهارَةً يُحَيِّرانِ الأَلْبابَ ! »

وَما أَتَمَّتْ «سُعادُ» جُمْلتَها ، حتَّى أَقْبَلَ أَخوها «رَشادٌ» الصَّغيرُ ، وفى يدِهِ عَصاً طويلَةٌ يَعْبَثُ بِها فى أَثْناءِ سَيْرِه ، حتى إذا اقْتَربَ من «سُعادَ» حانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ ، فرَأَى العَنْكَبَةَ قَريبةً مِنْهُ ؛ فَهَمَّ بِتَحْطِيمِ بَيْتِها بِعصاهُ .

وأَدْرَكَ «صَفاءٌ» ما يَجُولُ بخاطِرِ أَخيهِ ، فأَمْسَكَ بِيَدِهِ ، وَحالَ بينَهُ وبينَ ما يُريدُ .

فَغَضِبَ «رَشادٌ» الصَّغيرُ ، وقالَ لِأَخِيهِ «صفاءٍ» وقد سِيءَ وَجْهُهُ :

«لَقَدْ حَرَمْتَنى يا «صفاءُ» ، مُتْعَةً كانَتْ تَصْبُو إِلَيْها نَفْسى . ما كانَ ضَرَّكَ ـ يا أَخِى ـ لو أَطْلَقْتَ لى حُرِّيَّتى ، لِأَلْهُوَ بهذِهِ الْحَشَرَةِ الضَّئيلةِ ، الَّتى لا شَأْنَ لها ولا خَطَرَ ؟ »



٣ – نَشيدُ العنكبةِ

وَهُنا انْبَعَثَ مِنْ بينِ الْخُيُوطِ العَنْكَبِيَّةِ الدَّقِيقَةِ





صَوْتٌ خافِتٌ ، يَقولُ : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ، يا « رَشادُ » . أَنا لَسْتُ – كَما حَسِبْتَنِي – حَشَرَةً ضَئِيلَةً ، لا شَأْنَ لى وَلا خَطَرَ . إنَّ فَضْلَ الْعَناكِبِ على بَنِى الإِنْسانِ لَجَدِيرٌ بالثَّناءِ . وَإِنَّ مَهارَتَنا فى النَّسْجِ ، وَمُثابَرَتَنا عَلَى العمَلِ – بِلا مَلالٍ وَلا كَلالٍ – قَدْ أَصْبَحَتْ مَضْرِبَ الأَمْثالِ . »

فَعَجِبَ « رشادٌ » وَأَخَواهُ مِمَّا سَمِعُوهُ مِنْ تِلْكَ العَنْكبَةِ الذَّكِيَّةِ ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِم الْحَيْرَةُ ، وَتَمَلَّكَهُمُ الدَّهَشُ .

وإِنَّهُمْ لَغارِقُونَ فى ذُهُولِهِم مِمَّا سَمِعُوهُ ، إِذا بِالْعَنْكَبَةِ فى الشُّعِّ (وَهُوَ بَيْت الْعَناكِبِ) تُغَنِّى بِصَوْتٍ واضِحِ النَّبَراتِ :

« مَهارَةُ الْعَناكِبِ أَعْجَبُ شَىْءٍ عاجِبِ
هَنْدَسَةٌ دَقِيقَةٌ تَبْهَرُ عَقْلَ الْحاسِبِ
دائِبَةُ السَّعْيِ ، وَما يَفُوزُ غَيْرُ الدَّائِبِ
جاثِمَةٌ – فِى بيْتِها – لِحاضِرٍ ، وَغائِبِ
تَرْقُبُ كلَّ زائِرٍ ، مِنْ قادِمٍ ، وَذاهِبِ
تُوقِعُ – فِى شِباكِها – كلَّ غَبِىٍّ خائِبِ
تَرَى بِعَينٍ لا تَنِى تَرَى بِفِكْرٍ ثاقِبِ
بارِعَةٌ – فِى كَيْدِها – سَدِيدَةُ المَذاهِبِ
ناسِجَةٌ خُيوطَها عَلَى مِثالٍ صائِبِ
كَثِيرَةٌ أَرْجُلُها ، طَوِيلَةُ الْمَخالِبِ
لَها عُيُونٌ جَمَّةٌ ، تَرْنُو بِلا حَواجِبِ
وَهْىَ – إِذا دَرَسْتَها – عَجِيبَةُ الْعَجائِبِ ! »

٤ ـ قاتِلةُ الزِّنْبارِ

اشْتَدَّ عَجَبُ الإِخْوَةِ الثَّلاثَةِ مِمَّا سَمِعُوا ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْعَنْكَبَةِ الذكِيَّةِ مُنْصِتِينَ إِلَى حَدِيثِها المُعْجِبِ . فاسْتَأْنَفتْ قائِلَةً :

«أَصْغِ إِلَيَّ ، يا «رشادُ» : أَلا تَعْرِفُ أَنَّنى قَدْ أَسْدَيْتُ إِلَيْكَ صَنيعاً لا يُنْسَى ؟ أَلا تعْلمُ أَنَّنِي أَنْقَذْتُكَ مِنْ لَسْعَةِ زِنْبارٍ شَرِس ، كانَ يَهُمُّ بِإِيذائِكَ ، فِى الأُسْبُوعِ الْماضِى ؟ »

فَقال لَها «رَشادٌ» وأَخَواهُ مُتَعَجِّبِينَ :

«أَىَّ زِنبارٍ تعْنِينَ ، أَيَّتُها العنْكَبَةُ الكَرِيمَةُ ؟ »

فَقالتِ العَنْكبَةُ مَزْهُوَّةً تَيَّاهَةً :

«لمَحْتُ ـ منذُ أَيَّامٍ ـ زِنبارًا خَبيثاً ، يَطِنُّ طَنِيناً مُزْعِجاً . رأَيْتُهُ يَقْتَرِبُ مِنْ «رَشادٍ» ويَهُمُّ بِلَسْعِهِ ، فتَرَبَّصْتُ بِهِ الدَّوائرَ ، وَصَبَرْتُ عَلَيْهِ ، حتَّى اقْتَرَبَ مِنْ شِباكِي . وَما زِلْتُ به أُخادِعُه وأُغْرِيه ، حَتَّى وَقَعَ فى حَبائلى أَسيرًا ، وظَفِرْتُ به بعدَ عَناءٍ شديد . ثُمَّ أَنْشَبْتُ فيه مَخالِبِي ، ونَفَثْتُ فى جِسْمهِ من سَمِّي ، حتَّى خَدِرَتْ أَعْصابُه ، وَتَمَّ لِيَ افتراسُهُ . وكانَ لى أَشْهَى طَعامٍ أَكلتُه فى ذٰلك اليَوْمِ » .

* * *

فصفَّق الإخْوَةُ الثَّلاثةُ ، لِما سَمِعُوا مِنْ حَدِيثِ العَنْكبةِ ، وَأُعْجِبُوا بِبراعَتِها وَحِذْقِها . ثُمَّ قالَ لَها « صَفاءُ » :

« أَنْتِ أَسْدَيْتِ إلَيْنا صَنيعاً نَذْكُرُهُ لَكِ ، أَبَدَ الدَّهْرِ . وَسَنَتَّخِذُكِ لَنا صَدِيقَةً ، مُنْذُ اليوم . فَماذا أَنْتِ قائلَةٌ ؟ »

فَقالَتِ العَنْكَبَةُ : « ما أَسْعَدَنى بِصَداقَتِكم ، أَيُّها الإِخْوَةُ المُتَحابُّونَ . سَأَكُونُ لَكُمْ خَيْرَ صَدِيقٍ تَأْنَسُونَ به ، وَتُخْلِدُونَ إِلَيْهِ . »

فَقالَ لَها « صَفاءُ » : « شُكْرًا لكِ ــ أَيَّتُها العَنْكَبَةُ الظَّرِيفَةُ ــ عَلَى كَرِيم تَلَطُّفِكِ ، وَمَوْفورِ أَدبِكِ . فَهَلْ أَنْتِ مُتَفَضِّلةٌ عَلَيْنا ، فَذاكِرَةٌ لَنا كُنْيَتَكِ ، لِنُكَرِّمَكِ بها ، كُلَّما نادَيْناكِ ؟ »

فَقالَتِ العَنْكَبَةُ : « كانَتْ أُمِّى « الرُّتَيلاءُ » تُنادِينى ــ منذُ وَلَدَتْنى ــ بِأُمِّ قَشْعَمٍ . »

٥ ــ مَوْلِدُ العنكبةِ

فَقالَ « صَفاءُ » : « وَأَينَ أُمُّكِ الرُّتَيْلاءُ العزِيزَةُ ، أَيَّتُها الصَّديقة الْمُؤْنِسَةُ ؟ »

فقالتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « ماتَتْ أُمِّى « الرُّتَيْلاءُ » ، بعدَ أَن خرَجْتُ من بَيْضَتِى . لم أَنعمْ بها بعد ذلك اليوم . »

فصاحتْ « سُعادُ » : « كيفَ تَذْكُرِينها – يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » – وأنتِ لم تَرَيْها فى حياتِكِ قَطُّ ؟ »

فقالت « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « أَنا رأَيتُها ، حينَ خرجْتُ منَ البيضةِ. إنَّنا – مَعشرَ العَناكِبِ – نَخْرُجُ مِنَ البَيْضَةِ ، راشِدِين ، مُكْتَمِلِى الْخِلْقَةِ . هٰذا هُوَ شأْنِى وَشأْنُ بناتِ جِنْسى جميعاً . »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « هَلْ وَضَعتْ أُمُّكِ « الرُّتَيلاءُ » بَيْضَة واحِدَةً ، هِىَ الَّتِى خَرَجْتِ مِنْها ، يا أُمَّ قَشْعَمٍ ؟ »

أَجابَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » ضاحِكَةً : « كَلَّا ، يا « سُعادُ » . أُمِّى وَضَعتْ أَربَعين بَيْضَةً . أَنا كنتُ إِحْدَى مَوْلُودِها الْكَثِيرِينَ ! »

فَصاحَ « رَشادٌ » : « كَيْفَ تَبيضُ أُمُّكِ مِثْلَ هٰذا القَدْرِ الْعَظِيمِ ؟ »

قالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « إِنَّنا – مَعْشَرَ الْعَنْكَباتِ – نَبيضُ مِنْ عَشْرِ بَيْضاتٍ إِلَى مِائةِ بَيْضةٍ . وَقَدْ يَبْلُغُ ما يَبيضُهُ بَعْضُ بَناتِ جِنْسِنا ثَمانِمِائَةِ بَيْضةٍ . فَإِذا أَفْرَخَ الْبَيْضُ ، خَرَجَتِ الْعَناكِبُ

إلى الْجُعْدُبةِ (بيْتِ العَناكِبِ) نامِيَةَ الْخِلْقَةِ . وَلا تَزالُ تَنْمُو ، مُتَدَرِّجَةً فِى نَمائِها ، حَتَّى تُصْبِحَ مِثْلَ أُمَّاتِها . »

فَقالَ «صَفاءٌ» : «أَنْتِ أَخْبَرْتِنا أَنَّ أُمَّكِ «الرُّتَيْلاءَ» ماتَتْ بَعْدَ أَنْ خَرَجْتِ أَنْتِ مِنَ البَيْضَةِ . فَخَبِّرِينى : أَذٰلِكِ شَأْنُ أُمَّاتِ الْعَناكِبِ دائِماً ؟ هَلْ تَمُوتُ الْأُمَّاتُ بَعْدَ فَقْسِ الْبَيْضِ ، كَما ماتَتْ أُمُّكِ ؟ »

فَقالَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ» : «إِنَّ أَكْثَرَ الْعَنْكَباتِ يَهْلِكْنَ بَعْدَ أَنْ يَضَعْنَ البَيْضَ ، أَو عَقِبَ تربيَةِ أَطْفالِهِنَّ النَّاشِئِينَ .

على أَنَّ بَعْضَنا قَدْ يُعَمَّرُ أَرْبَعَ سَنَواتٍ كامِلَةً . »

ثُمَّ اسْتَأْنَفتِ العَنْكَبَةُ قائلَةً : «مَتَى وَضَعَتِ العَنْكَبَةُ البَيْضَ ، نَسَجَتْ حَوْلَهُ غِلافاً لِوِقايَتِه مِنَ الْأَحْداثِ وَالْخُطوبِ . فإِذا تَمَّ فَقْسُ الْبَيْضِ ، خَرَجَتْ مِنْهُ العَنْكَباتُ والعَناكِبُ مُسْتَقْبِلَةً الْحَياةَ ، وَقُلُوبُهُنَّ مَمْلُوءَاتٌ أَمَلًا وَرَجاءً ، وَنُفُوسُهُنَّ مُفْعَماتٌ بِحُبِّ الْعَمَلِ وَالْمُثابَرَةِ . »

فَقالَتْ «سُعادُ» : «أَراكِ تُقَسِّمِينَ أَبْناءَ «الرُّتَيْلاءِ» إِلَي :

عَنْكَبات ، وَعَناكِبَ . فَخَبِّرِينا ، يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » : أَىُّ فَرْقٍ بَينَ الذَّكَرِ والْأُنْثى ؟ »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « إِنَّ العَنْكَبَةَ أَكْثَرُ نَفْعاً ، وَأَعَمُّ فائدَةً ، وَأَوْفَرُ عَمَلًا ، مِنْ أَخيها العَنْكَبِ؛ لأَنَّها تُؤَدِّى مِنْ جَلائِلِ الأَعْمالِ ما لا يُؤَدِّيهِ. فَهِىَ تَغْزِلُ ، وَتَنْسُجُ بَيْتَها ، وَتَقُومُ بِكُلِّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ الأُسْرَةُ. أَمَّا العَنْكَبُ ، فَهُوَ لا يَنْشَطُ إِلَى النَّسْجِ إِلَّا مُضْطَرًّا ، وَهُوَ أَقَلُّ صَبْرًا عَلَى العَمَلِ ، واحْتِمالا لِلمُثابَرَةِ ، كَما أَنَّهُ أَصْغَرُ جِسْماً ، وَأَقَلُّ قُوَّةً . »

٦ ــ نَشْأَةُ « أُمِّ قَشْعَمٍ »

فَقالَ « صَفاءٌ » : « أَيْنَ وُلِدتِ ، يا أُمَّ قَشْعَم ؟ »

قالَتِ العَنْكَبَةُ : « أَنا وُلِدتُ فِى بَيتِ عَميدِ هٰذه القَريَةِ ، حَيْثُ نَسَجَتْ أُمِّىَ « الرُّتَيلاءُ » بَيتَها الجَميلَ ، فِى إِحْدَى الغُرَفِ الْمَهْجُورَةِ . وَظَلِلْتُ وإِخْوتى نَسْكُنُ هٰذا البَيْتَ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّنا ، حَتَّى جاءَ خادِمٌ خَبِيثٌ زَلْزَلَ بَيْتَنا فِى لَحْظَةٍ واحِدَةٍ ؛

فأعَدْتُ نَسْجَ الْبَيْتِ – مِنْ جَدِيدٍ – بَعْدَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . فَلَمَّا جاءَ الْغَدُ ، عادَ إِلَيْنا الْخادِمُ الشِّرِّيرُ ، فنقَضَ بَيتَنا مَرَّةً أُخْرَى . فَهَجَرْتُ ذٰلِكَ المَكانَ إِلَى حافَةِ النَهرِ . ونَسَجْتُ لِي بَيْتاً جمِيلًا فى ثَنايا إِحْدَى الأَشْجارِ . ومَا لَبِثْتُ فِيهِ أُسْبُوعَيْنِ ، حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَ الضَّفادِعِ يَأْتَمِرُ بى لِيَقْتُلَنِي . فَهَجَرْتُ بَيْتِي إِلَى جِدارٍ قَدِيمٍ مَهْجُورٍ ، حَيْثُ بَنَيْتُ لِي دارًا أَنِيقَةً . ولٰكننى لَمْ أَستقرَّ فيها حَتَّى رَأَيْتُ جَماعَةً مِن كِبارِ البِرَصَةِ تَأْتَمِرُ بِي لتَقْتُلَنِي ، فهَرَبْت مِنْها ، وَآثَرْتَ السَّلامَةَ والعافِيَةَ . وَما زِلْتُ أَمْشِي ، حَتَى ساقَتْنِى المَقادِيرُ إِلَى هٰذِهِ الحَدِيقَةِ الجَمِيلةِ ، حَيْثُ بَنَيْتُ هٰذا الْبَيْتَ الفاخِرَ ، الذى تَرَوْنَه أَمامَكُمْ ! »

٧ – سِباعُ العَناكِبِ

فَقالَتْ « سُعادُ » : « أَتَمَنَّى لَكِ عِيشَةً راضِيةً ، يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » . وَأُحِبُّ أَن تُخبرِينى – أَيَّتُها الْعَزِيزَةُ – كَيْفَ تَخْشَيْنَ البِرَصةَ ؟ إِنَّ أَحَدَ الْمُدَرِّسِينَ أَخْبَرَنا فِى بَعْض دُرُوسِهِ أَنَّكُم – مَعْشَرَ العناكِبِ – تَأْكُلُونَها ؟ »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « صَدَقَ المُدَرِّسُ . إِنَّ بعْضَ بَناتِ جِنْسِنا — مِنْ كِبارِ الْعَناكِبِ — يَفْتِكْنَ بِالبِرَصَةِ ، كَما يَفْتِكْن بِكِبارِ الْحَشَراتِ ، وَصِغارِ العَصافِيرِ . »

فَقالَ « صَفاءُ » : « صَدَقْتِ ، يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » . إِنَّ الأُستاذَ حدَّثَنى أَنَّ نَوْعاً مِنْ سِباعِ العَناكِبِ النَّاشِئَةِ فِى بِلادِ « البَرازِيلِ » ، تَصْدُقُ عَلَيْهِ هٰذِهِ الأَوْصافُ التى تَذْكُرِينَها . »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « حَدَّثَتْنا بَناتُ « الرُّتَيْلاءِ » عَنْ هٰذه العَنْكَباتِ الَّتِى وَصَفْتُها لَكَ ، يا « صَفاءُ » . وهى — كَما قُلْتُ — مِنْ سِباعِ الْحَشَراتِ . »

٨ — مَزايا العَناكِبِ

فَقالَتْ « سُعادُ » : « إِنَّ جِسْمَكِ — فِيما أَرَى — ناعِمُ الْمَلْمَس ، لَسْتُ أَذْكُرُ أَنَّنى رَأَيْتُ حَشَرَةً تُشْبِهُكِ فى هٰذه المِيزَةِ . »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « إِنَّ اللهَ مَيَّزَنا — مِن بَيْنِ الْحَشَراتِ كلِّها — بِنُعُومَةِ الجِسْمِ ، وَخَصَّنا بِهٰذِهِ المِيزَةِ ، عَلَى ٱخْتِلافِ أَنواعِنا ، وَتَبايُنِ أَجْناسِنا ، وَتَفَرُّقِ أَوْطانِنا .

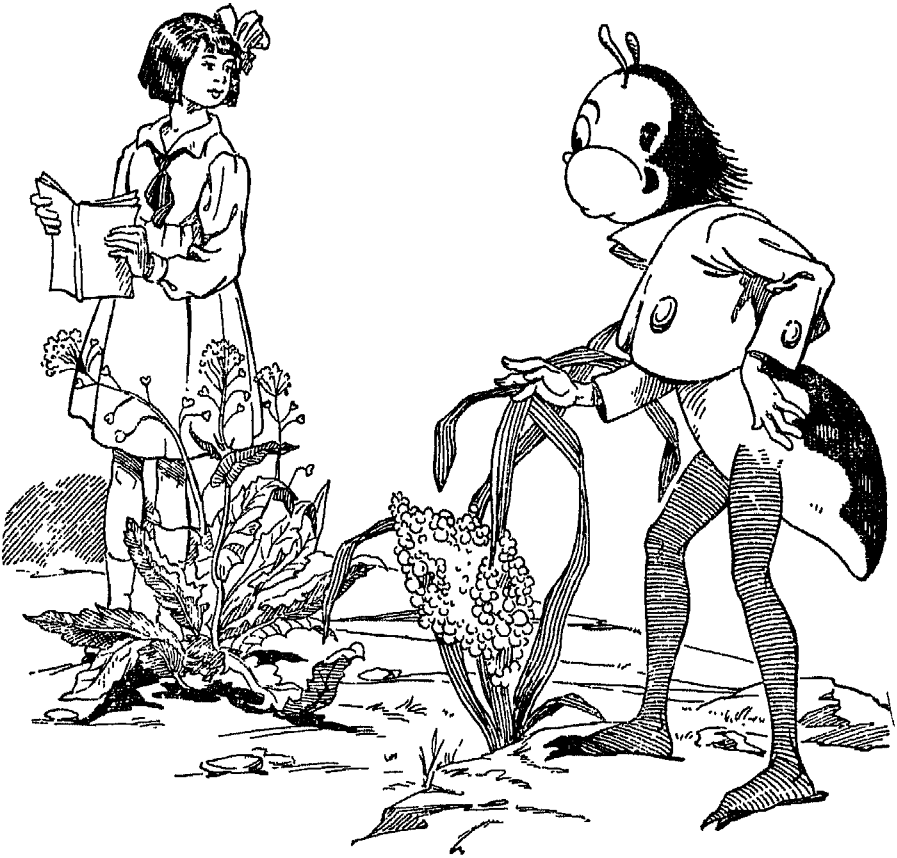
وَجَعَلَ أَجْسامَنا مُؤَلَّفَةً مِنْ حَلَقاتٍ ، لا تكادُ تَراها الْعَيْنُ ، لِتَقارُبِ بَعْضِها مِنْ بَعْضٍ! »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « أَسْمَعُكِ تَقُولِينَ : إِنَّكُمْ مُخْتَلِفُو الأَجْناسِ . فَهَلْ تَعْنِينَ أَنَّ بَعْضَ العَناكِبِ يَخْتَلِفُ عَنْ بَعْضٍ؟ »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « ما فى ذٰلِكَ رَيْبٌ ، يا « سُعادُ » . إِنَّنا ــ مَعْشَرَ العناكِبِ ــ أَنواعٌ كثيرةٌ لا تُحْصَى . فمِنَّا مَنْ يَتَّخِذُ لهُ جُحْرًا يَحْفِرُهُ فى الأَرْضِ ، وَيُخفيهِ عَنِ العُيُونِ ، وُيقيمُ فِيهِ طُولَ يَوْمِه . فإِذَا أَمْسَى ، فتَحَ بابَ الْجُحْرِ ، وَخَرجَ مُلْتَمِساً رِزْقَهُ ؛ حَتَّى إِذا شَبِعَ ، عادَ إِلى جُحْرِهِ ، وَأَقامَ فِيهِ بَعيدًا عَنْ عُيُونِ الرُّقَباءِ .

ومِنَّا مَن يَبْنِى بُيوتَهُ فى البساتينِ ، أَوْ فِى بُيوتِ النَّاسِ . ومِنَّا مَن يَبْنِيها فَوْقَ مَسارِب المِيَاهِ ، وَيَنْسُجُ خُيُوطَهُ الطَّوِيلَةَ عَلَى شَجَرَتَيْنِ مُتقابلتَينِ مِنَ الشَّاطِئينِ .

أَمَّا عُيونُنا فَهِى لا تتحَرَّكُ كَما تَتَحَرَّكُ عَيْنا الإِنْسانِ ؛ وَلِهٰذا جعَلَ لَنا اللهُ ــ سُبحانَهُ ــ كَثيرًا مِنَ العُيُون ، لنَرَى بِها كُلَّ ما يَكْتَنِفُنا مِنَ الأَشْياءِ .



وَقَدْ وَهبَ اللهُ لِبَعْضِنا عينَيْن ـ كَما وَهَبَ لَكُم مَعْشَرَ النَّاسِ ـ ووَهب لِلْبَعْضِ الآخَرِ عُيوناً أَرْبعاً ، ووَهَبَ لِفَرِيقٍ ثالِثٍ : عُيوناً ستًّا ، أَو ثَمانِيَ ، أَو عَشْرًا ، أَو اثْنَتَيْ عَشْرةَ . »

فَصاحَ « رَشادٌ » : « ما أَطْوَلَ أَرْجُلَكِ ، يا أُمَّ قَشْعَم ! »

فَضَحِكتِ الْعَنكَبَةُ قائِلَةً : « لا يُدْهِشَنَّكُمْ طُولُ أَرْجُلِي - أَيُّها الْإِخوَةُ الْأَعِزَّاءُ - فَقَدْ خَلَقَها اللهُ كَذٰلِكَ لِتُساعِدَنِى عَلَى الْجَرْيِ . فِى خِفَّةٍ نادِرَةٍ . وَقَدْ مَيَّزَنا اللهُ - سُبْحانَهُ - بِالنَّشاطِ وَالسُّرْعَةِ .
وَلَوْ تَأَمَّلْتُمْ مَخالِبِىَ الْقَوِيَّةَ ، لاشْتَدَّ عَجَبُكُمْ ، وَأَنْسَتْكُمْ دَهْشَتُكُمْ مِنْها كُلَّ شَيْءٍ . »

فَقالَتْ «سُعادُ» : «وَأَيُّ مِيزَةٍ فِى هٰذِهِ الْمَخالِبِ الَّتِى تَزْهَيْنَ بِها؟ »

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : « لَقَدْ خَصَّنِىَ اللهُ بِها ، لِيُمَكِّنَنِى مِنَ الْفَتْكِ بِالْحَشَراتِ الضَّارَّةِ ، الَّتِى تُؤْذِيكُمْ ، وَتُنَغِّصُ عَلَيْكُمْ حَياتَكُمْ . وَلَوْلانا لامْتَلَأَتِ الدُّنْيا بِتِلْكَ الْحَشَراتِ الَّتِى تُهْلِكُ حَرْثَكُمْ ، وَتَعِيثُ فِى أَرْضِكُمْ وَحُقُولِكُمْ فَسادًا . »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « لَقَدْ خَلَقَكُمُ اللهُ - مَعْشَرَ الْعَناكِبِ - رَحْمَةً بِالنَّاسِ . فَما بالُكُمْ لا تَنْتَشِرُونَ فِى بِلادِ الْأَرْضِ كُلِّها ، لِتَقْضُوا عَلَى الْحَشَراتِ الْمُؤْذِيَةِ ؟ »

فَقالتِ الْعَنْكَبَةُ : « إِنَّنا قَلَّما يَخْلُو مِنا بَلَدٌ ، أَوْ بَيْتٌ ، أَوْ حَقْلٌ ؛ مِنْ خَطِّ الِاسْتِواءِ إِلَى أَقاصِى الشَّمالِ . وَلَوْلانا لامْتَلَأَ الْجَوُّ بِالذُّبابِ وَالْبَعُوضِ ، وَأَشْباهِها مِنَ الْحَشَراتِ الْمُؤْذِيَةِ . »

فَقالَ « رَشادٌ » : « فَما بالُكِ تَأْلَفِينَ الْأَماكِنَ الْقَذِرَةَ ، وَالْأَرْجاءَ الْمَهْجُورَةَ ، وَتُؤْثِرِينَها عَلَى الْجِهاتِ النَّظِيفَةِ ؟ »

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : « إِنَّنا نَكْثُرُ فِى تِلْكَ الْأَماكِنِ ، لِأَنَّ هٰذِهِ الْحَشَراتِ الضَّارَّةَ تَكْثُرُ فِيها ، وَهِيَ مَصْدَرُ غِذائِنا الَّذِى نَقْتاتُ بِهِ . »

فَقالَ «رَشادٌ » : « إِنَّكِ ضَعِيفَةٌ ، لاقُوَّةَ لَكِ ، وَماأَرَى خُيُوطَكِ إِلَّا واهِيَةً . فَكَيْفَ تَزْعُمِينَ أَنَّكِ قادِرَةٌ عَلَى اقْتِناصِ الْحَشَراتِ فِيها ؟ »

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : « إِنَّنِي - عَلَى ضَعْفِي - بارِعَةُ الْحِيلَةِ ، وَقَدْ وَهَبَنِيَ اللهُ صَبْرًا وَجَلَدًا نادِرَيْنِ . وَقَلَّما تَنْجُو فَرِيسَةٌ مِنْ بَيْنِ مِخْلَبَيَّ . وَإِنِّى لَأَسْتَدْرِجُها ، حَتَّى تَقَعَ فِى حِبالَتِى ؛ فَأَنْفُثَ فِيها مِنْ مِخْلَبِيَّ السَّمَّ ؛ حَتَّى يَنْهَكَ قُواها ، وَلا تَجِدَ سَبِيلًا إِلَى النَّجاةِ ، وَيَكُونَ نَصِيبَها الْهَلاكُ ؛ مَهْما بَذَلَتْ مِنْ جُهْدٍ وَمُقاوَمَة . وَإِنِّى لَأَثِبُ عَلَى الذُّبابَةِ فَلا أَكادُ أُخْطِئُها . أَمَّا خُيُوطِى هٰذِهِ ، فَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ - مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ - كَيْفَ يَنْسُجُونَ شِباكَهُمْ وَثِيابَهُمْ عَلَى مِنْوالِها . وَقَدْ حاوَلُوا - مُنْذُ الْقَرْنِ الْماضِى - أَنْ يَنْسُجُوا مِنْ خُيُوطِى ثِيابَهُمْ ، فَلَمْ

يُوَفَّقُوا إِلَى ذٰلِكَ . وَلٰكِنَّ شَغَفَهُمْ بِدِقَّةِ هٰذا النَّسْجِ وَإِحْكامِهِ ، قَدْ حَفَزَهُمْ إِلَى تَذْلِيلِ العَقَباتِ فِى سَبِيلِ هٰذِهِ الغايَةِ . وَما زالوا يُعْمِلُونَ الحِيلَةَ ، حَتَّى وُفِّقَ الصِّينِيُّونَ – مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ – إِلَى أَخْذِ قِطَعٍ مِنْ نَسِيجِ العَناكِبِ ، وَأَرسَلُوها إِلَى « أَوْرُبَّةَ »



لِتُخْلَطَ بالحَرِيرِ ، فَتَزِيدَ النَّسْجَ رَوْعَةً وجَمالًا . وَقَدْ لَقُوا فى ذٰلِكَ مِنْ أَلْوانِ العَناءِ ما لا يُوصَفُ . »

٩ ـ فَخْرُ العَناكِبِ

وَامْتَلأَتِ العَنْكَبَةُ زَهْوًا وَخُيَلاءَ ، بِما خَصَّها اللهُ بِهِ مِنْ مَزايا نادِرَةٍ ، فانْطَلَقَتْ تُغَنِّى نَشِيدَ العَناكِبِ ، فِى صَوْتٍ واضِحِ النَّبراتِ :

«نَحنُ ٱلْعَناكِبَ ،أَبناءَ الرُّتَيلاءِ — نَبنِى ٱلْبُيُوتَ عَلَى الْأَشْجارِوَٱلْماءِ
وَفَوْقَ مُرتَفِعٍ ، أَوفَوقَ مُنْخَفِضٍ — وَ فِى ٱلْبَساتِينِ ، أَوفِى عُرضِ بَطْحاءِ
وَتَحتَ أَقْبِيَةٍ ، أَو فَوقَ رابِيَةٍ ، — وَفِى شَفا حُفْرَةٍ ، أَو فَوقَ عَلْياءِ
وَفِى المَنازِلِ : كَم نَبنِى مَساكِنَنا — تَحتَ ٱلسُّقُوفِ ، وَفِى أَرْكانِ أَفْناءِ
وَرُبَّما نَحْفِرُ الْأَجْحارَ نَسْكُنُها — وَقَدْ نَعِمْنا بِها ، فِى جَوْفِ ظَلْماءِ
وَقَدْ جَعَلْنـا لَها باباً يُؤَمِّنُنا — ـ إِذا أَقَمْنَا بِها ـ مِنْ شَرِّ أَعْداءِ
نَظَلُّ فِيها ـ نَهارًا ـ وادِعِينَ ، فَإِنْ — جَنَّ الظَّلامُ ، دَرَجْنا بَيْنَ أَحْياءِ
نَسْعى إِلَى القُوتِ مَهْما عَزَّ مَطْلَبُهُ — فِى كُلِّ دانٍ ـ مِنَ الأَقْطارِ ـ أَوْ نائِى

* * *

وَكَمْ نُهَيِّئُ نَسَجْنا - فوقَ صَفْحَتِهِ بَيْتاً يُحَيِّرُ أَلْبابَ الأَلِبَّاءِ
بَيْتاً - عَلَى جَنَباتِ الماءِ - نَرْفَعُهُ مِنَ الخُيوطِ ، فَيَبْدُو بَهْجَةَ الرَّائِي
يا حُسْنَ هَنْدَسَةٍ مِنْ ناسِجٍ صَنَعَهُ يَسْمُو عَلَى كُلِّ نَسَّاجٍ ، وَوَشَّاءِ!

* * *

وَكَمْ أَسَرْنا بَعوضاً - في حِبالَتِنا - وَكَمْ قَنَصْنا ذُباباً ، بَعْدَ إِغْراءِ
تَهْوِي الفَرائِسُ أَسْرَى - في حَبائِلِنا مِنْ كُلِّ بَلْهاءَ ، تَمْشِي خَبْطَ عَشْواءِ
فَنَنْفُثُ السَّمَّ فِيها ، مِنْ مَخالِبِنا فَلا تُرَى - بَعْدَ حِينٍ - غَيْرَ أَشْلاءِ!

* * *

وَهَلْ نَسَجْتُمْ شِباكَ الصَّيْدِ مِنْ قِدَمٍ
إِلَّا مُحاكِينَ مِنْوالَ الرُّتَيْلاءِ ؟! »

١٠ - بَيْنَ « صَفاءٍ » و « أُمِّ قَشْعَمٍ »

وَقَدْ أُعْجِبَ الإِخْوَةُ الأَشِقَّاءُ الثَّلاثَةُ بِهٰذا النَّشِيدِ الرَّائِعِ ، وَشَكَرُوا لِلْعَنْكَبَةِ هٰذِهِ الفُرْصَةَ السَّعِيدَةَ ، وَتِلْكَ الفَوائِدَ الطَّرِيفَةَ الَّتِي هَيَّأَتْها لَهُمْ .

وَهَمُّوا بِالانْصِرافِ ؛ ولٰكِنَّ « صَفاءً » قال لَها ، وَهُوَ يُوَدِّعُها : « لَقَدْ حَدَّثْتِنِي أَنَّ لَكِ إِخْوَةً مِنَ الْعَناكِبِ ، فَأَيْنَ هُمْ ؟ »

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : « إِنَّ الْعَناكِبَ لا تَكادُ تَكْبَرُ ، حَتَّى تَفْتَرِقَ ؛ ثُمَّ لا يُمَيِّزُ أَحَدٌ مِنَ الأَشِقَّاءِ أَخاهُ ، إِذا رَآهُ . وإِنَّ أُمَّ الْعَناكِبِ — إِذا ٱرْتَحَلَتْ مِنْ بَيْتِها — وَضَعَتْ بَيْضَها فِي كِيسٍ تَنْسُجُهُ مِنْ خُيُوطِها . ثُمَّ تَحمِلُهُ — فِي حَذَرٍ وعِنايَةٍ نادِرَيْنِ — وَتُدافِعُ عَنْهُ دِفاعَ الْمُسْتَمِيتِ . فَإِذا فُقِسَ الْبَيْضُ ، حَمَلَتْ صِغارَها عَلَى ظَهْرِها ؛ حَتَّى إِذا كَبِرُوا تَرَكَتْهُم ! فَإِذا رَأَتْ واحِدًا مِنْهُمْ — بَعْدَ ذٰلِكَ — لَمْ تَعُدْ تَمِيزُهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلا تَتَرَدَّدُ فِي افْتِراسِهِ ، إِذا لَقِيَتْهُ فِي الطَّرِيقِ لِتَتَغَذَّى بِهِ !

وَلَوْلا ذٰلِكَ لَزادَ عدَدُنا زِيادَةً عَظِيمَةً ! »

فَقالَ لَها « صَفاءٌ » ، وَقَدِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ مِمَّا سَمِعَ :

« قَدْ تَأْكُلُ الْعَنْكَبَةُ . الْجُنْدَبا وَتُهلِكُ الزِّنْبارَ وَالْعَقْرَبا
وَكَمْ بَعُوضٍ — فِي حِبالاتِها — راحَ أَسِيرًا ، يَبْتَغِي مَهْرَبا
فَخَدَّرَتْ — بِالسَّمِّ — أَعْصابَهُ ، وَأَنْشَبَتْ — فِي جِسْمِهِ — الْمِخْلَبا

وَقَدْ يَصِيدُ الضِّفدِعُ الْعَنْكَبا ، كَما تَصِيدُ الْبُومَةُ الْأَرْنَبا
وَتَأْكُلُ الْقِطَّةُ فَأْرًا ، وَلا تُبْقِي عَلَى فرْخٍ صَغِيرٍ حَبا
وَقَدْ أَلِفْنا كُلَّ هٰذا ، فَلَمْ نَدْهَشْ لَهُ ، مَهْما بَدا مُغْرِبا
لٰكِنَّ ما حَيَّرَ أَلْبابَنا ، أَنْ تَأْكُلَ الْعَنْكَبَةُ الْعَنْكَبا ».

فَأَجابَتْهُ « أُمُّ قَشْعَمٍ » :

« إِنْ تَأْكُلِ الْعَنْكَبَةُ الْعَنْكَبا أَوْ تَأْكُلِ الْأُمُّ ابْنَها الْأَنْجَبا
أَوْ تَأْكُلِ الآباءُ أَبْناءَها أَوْ تَأْكُلِ الْأُخْتُ أَخاً أَوْ أَبا
أَوْ تَأْكُلِ الزَّوْجاتُ أَزْواجَها ، فَلَيْسَ هٰذا حادِثاً مُغْرِبا
أَما تَرَى الْأَسْماكَ قَدْ شابَهَتْ – فى قَتْلِ ماتُنْجِبُهُ – الْعَنْكَبا؟
تَلْتَهِمُ الْكُبْرَى صَغِيراتِها ، وَيَأْكُلُ الْحُوتُ ابْنَهُ الْأَقْرَبا!
وَأَنْتُمُ النَّاسَ – عَلَى رُشْدِكُمْ – صِرْتُمْ لِأَمْثالِ الْأَذَى مَضْرِبا
لَمْ تَرْحَمُوا طَيْرًا – عَلى غُصْنِهِ – رَتَّلَ لَحْناً شائِقاً مُعْجِبا
وَلَمْ تُغِيثُوا بائِساً مُعْدِماً وَلَمْ تُقِيلُوا عاثِرًا مُذْنِبا
وَكَمْ أَكَلْتُمْ لَحْمَ إِخْوانِكُمْ مَيْتاً ، ولَمْ تَرْعَوْهُمُ غُيَّبا
فَلا تَعِيبُونا – بِأَدْوائِكُمْ – فَقَدْ غَدا مَنْ عابَنا : أَعْيَبا ! »

١١ ـ شَناعَةُ الْغِيبَةِ

فَصاحَتْ «سُعادُ» ، مَدْهُوشةً : «لَسْتُ أَفهمُ ماذا تَعْنِينَ ـ يا «أُمَّ قَشْعَمٍ» ـ بِقَوْلِكِ : «إِنَّ النَّاسَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ إِخْوانِهِمْ مَيْتاً» !

فإِنَّنى لَمْ أَرَ ، وَلَمْ أَسْمَعْ ، فى حَياتى كُلِّها ، أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ قَدْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ ، أَوْ صاحِبِهِ ، قَطُّ !»

فَضَحِكَ «صَفاءٌ» مِنْ سَذاجَةِ أُخْتِهِ «سُعادَ» ، وَقالَ لَها : «إِنَّ «أُمَّ قَشْعَمٍ» لا تَعْنِى أَنَّ النَّاسَ يَأْكُلُون لَحْمَ إِخوانِهِمْ حَقًّا ؛ ولٰكِنَّها تَعْنِى أَنَّهُمْ يَغْتابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَمَنِ اغْتابَ صاحِبَهُ ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَكَلَ لَحْمَهُ مَيْتاً .»

فقالَتْ «سُعادُ» : «آهِ ! لَقَدْ فَهِمْتُ ما تَعْنِيهِ «أُمُّ قَشْعَمٍ» الآنَ . وَلَعَلَّها تُشيرُ إِلَى الآيَةِ الْكَرِيمَةِ : وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ؟ فَكَرِهْتُمُوهُ .»

فَقالَ «صَفاءٌ» : «صَدَقْتِ ، يا «سُعادُ» . فَإِنَّ «أُمَّ قَشْعَم» لَمْ تَعْنِ إِلَّا ما فَهِمْتِهِ تَماماً . وَلَوْ أَمْعَنْتِ الْفِكْرَ ـ يا أُخْتِى ـ

لَرَأَيْتِ أَنَّ مَنْ يَغْتابُ صاحِبَهُ ، يُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَراهُ أَنَّهُ يَنْهَشُ لَحْمَهُ ، وَلَيْسَ أَصْدَقَ مِنْ هٰذا التَّمْثِيلِ ،وَلا أَدَقَّ مِنْ هٰذا التَّشْبِيهِ ! »

١٢ ــ وَداعُ « أُمِّ قَشْعَمٍ »

فَقالَ « رَشاد » : « لَقَدْ تَأَخَّرْنا عَنْ مَوعِدِ الْعَوْدَةِ إِلَى دارِنا . وَإِنِّى لَأَخْشَى أَن يَقْلَقَ أَبَوانا عَلَيْنا وَيَنْزَعِجا ، إِذا لَمْ نَعُدْ إِلَيْهِما تَوًّا . »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « صَدَقْتَ يا أَخِى ، فَقَدْ شَغَلَنا حِوارُ « أُمِّ قَشْعَمٍ » الْمُمْتِعُ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى الْبَيْتِ . »

فَاسْتَأْذَنَ « صَفاءُ » صاحِبَتَه الْعَنْكَبَةَ فِى الذَّهابِ ، وَوَعَدَها بِالعَوْدَةِ إِلَيْها ــ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ ــ لِلاِسْتِزادَةِ مِنْ حَدِيثِها الشَّهِىِّ فَوَدَّعَتْهُ ، شاكِرَةً لَهُ حُسْنَ تَلَطُّفِهِ ، وَمَوْفُورَ أَدَبِهِ .

فَأَنْشَدَها « صَفاءُ » الْأَبْياتَ التَّالِيَةَ :

« سَلِمتِ ، يا « أُمَّ قَشْعَمْ » فَإِنَّ قُرِبَكِ مَغْنَم
أَمْتَعْتِنا بِحَديثٍ ، مِنَ الطَّرائِفِ مُلْهِمْ
وَأَنْتِ خَيْرُ سَمِيرٍ ، وَمُؤْنِسٍ وَمُكَلِّمْ
وَأَنْتِ خَيْرُ حَكِيمٍ ، وَأَنْتِ خَيْرُ مُعَلِّمْ
وَلَسْتُ أَنْساكِ يَوْماً ماعِشْتُ ، يا أُمَّ قَشْعَمْ . »

١٣ - بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

وَلَمَّا عادَ الْأَشِقَّاءُ الثَّلاثَةُ ، وَجَدُوا أَبَوَيْهِمْ يَنْتَظِرانِهِمْ بِفارِغِ الصَّبْرِ .

وَما كادَ أَبَواهُمْ يَسْأَلانِهِمْ عَنِ السَّبَبِ فِي تَأَخُّرِهِمْ عَنْ مَوْعِدِ الْحُضُورِ ، حَتَّى أَفْضَوْا إِلَيْهِما بِكُلِّ ما دارَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ «أُمِّ قَشْعَمٍ» مِنْ أَحادِيثَ طَرِيفَةٍ . فابْتَهَجَ «أَبُو صَفاءٍ» بِما سَمِعَ مِن بَنِيهِ ، وَأَمَرَ «صَفاءً» أَنْ يُحْضِرَ كِتاباً بِعَيْنِه ، فَوْقَ مَكْتَبِهِ . فَلَمَّا أَحْضَرَهُ «صَفاءُ» رَغِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ أَنْ يَنْظُرَ فِي الصَّفْحَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ المِائَةِ ، مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِي ، مِنَ الْكِتابِ .

فَقالَتْ «سُعادُ» : «أَيُّ كِتابٍ هٰذا ، يا صَفاءُ ؟»

فَأَجابَها أَبُوها : «إِنَّهُ كِتابٌ نَفِيسٌ ، اسْمُهُ «دُرُوسُ التَّأَمُّلِ فِي مَشاهِدِ الطَّبِيعَةِ» ، وَأَنا أُوصِيكُمْ بِقِراءَتِهِ وَدَرْسِهِ .»

فانْطَلَقَ «صَفاءُ» يَقْرَأُ ذٰلِكَ الْفَصْلَ الرَّائِعَ - وعُنْوانُهُ : «بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ» - بِصَوْتٍ واضِحٍ ، جَلِيِّ النَّبَراتِ :

«تَنْسُجُ العَنْكَبُوتُ - كَعَنْكَبُوتِ الْحَدِيقَةِ - بَيْتَها فِي ثَنايا

الأَحْجارِ ، وَبَيْنَ الْأَوْراقِ وَالْأَغْصانِ ، أَوْ فِى زَوايا الْجُدْرانِ الْقَدِيمَةِ أَوِ الْمَهْجُورَةِ ، أَوِ الْأَماكِنِ الْقَذِرَةِ . وَهُوَ فِى الْحَقِيقَةِ أَجْمَلُ الْأَنْسِجَةِ الَّتِى يَنْسُجُها حَيَوانٌ . وَتَبْتَدِئُ فِى عَمَلِ بَيْتِها بِمَدِّ الْخُيُوطِ القَوِيَّةِ الرَّئِيسَةِ الْأَساسِيَّةِ ، أَوَّلًا . ثُمَّ تُتْبِعُها بِخُيُوطٍ شُعاعِيَّةٍ ، مِنْ نُقطَةٍ إِلَى أُخْرَى ، خِلالَ الْمَسافاتِ الْمُتَّسِعَةِ ، بِحَيْثُ تَتَقابَلُ كُلُّها فِى الْمَرْكَزِ . ثُمَّ تَمُرُّ بِخَيْطٍ لَطِيفٍ ، مُبْتَدِئَةً مِنَ الْمَرْكَزِ ، مارَّةً بِتِلْكَ الْخُيُوطِ بِشَكْلٍ لَوْلَبِىٍّ . وَلا تَقْتَصِرُ عَلَى تَقاطُعِ الْخُيُوطِ الشُّعاعِيَّةِ مَعَ الْخَيْطِ اللَّوْلَبِىِّ ، بَلْ تَجْتَهِدُ فِى تَثْبِيتِها مَعاً ، بِنُقَطٍ صَمْغِيَّةٍ مِنَ السَّائِلِ الَّذِى تُفْرِزُهُ . وَبَعْدَ تَمامِ الْبَيْتِ تَقْطَعُ مَرْكَزَهُ ، وَتَرْبِطُهُ بِمِخْلَبِها ، بِخَيْطٍ طَوِيلٍ ، تَسْتَخْدِمُهُ كَأَسْلاكِ الْبَرْقِ . وَلَها مَهارَةٌ فائِقَةٌ فِى تَرْتِيبِ خُيُوطِها ، واسْتِخْدامِها فِى الْمَسافاتِ الْبَعِيدَةِ الْواسِعَةِ . فَإِنَّها تَغْزِلُ خَيْطًا طَوِيلًا وَتُدَلِّيهِ ، حَيْثُ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ إِلَى الْغُصْنِ الْآخَرِ ، أَوِ الْجِدارِ ، مَثَلًا ؛ فَيَعْلَقُ بِهِ .

وَتُتَمِّمُ بِناءَ بَيْتِها فى نَحْوِ
ساعَةٍ زَمَنيَّةٍ ، ثُمَّ تأْوى إِلَيْهِ
لِتَرْقُبَ عَنْ كَثَبٍ كُلَّ حَشَرَةٍ



تَطِنُّ بِالقُرْبِ مِنْهُ .

وَما أَسْرَعَ ما يُوجَدُ الاِضْطِرابُ وَالْهَيَجانُ فى بَيْتِها .

وَإِذا بِالفَرِيسَةِ الْمُغَفَّلَةِ قَدْ وَقَعَتْ فِيهِ ، ثُمَّ هىَ تُرِيدُ أَنْ تُحاوِلَ الْخَلاصَ مِنْهُ ، فَلا يُجْدِيها عَمَلُها !

وَالْعَنْكَبُوتُ سَرِيعةُ جِدًّا ، لِأَنَّها سُرْعانَ ما تَهجُمُ عَلَى الْفَرِيسَةِ ، وتَرْمِى بِنَفْسِها ، قابِضَةً عَلَيْهــا ، فَتُنْشِبُ مَخالِبَها الْقاسِيَةَ ، الَّتِى هِىَ مَحـاقِنُ سامَّةٌ ؛ ثُمَّ تَلُفُّهـا فِى خُيُوطٍ أُخْرَى ، وَتُوثِقُها وَثاقاً تامًّا ، فَتُصْبِــحُ مَشْدُودَةَ الْأَطْرافِ ، مُهَشَّمَةَ الْجِسْمِ ، مَعْضُوضَةً ، مَسْمُومَةً ، وَحِينئذٍ تَجُرُّها إِلَى عَرِينِها ، عَلامَةً عَلَى انْتِصارِها ؛ فَإِمَّا أَنْ تَبْتَلِعَها مِنْ فَوْرِها ، وَإِما أَنْ تَتْرُكَها مُكَبَّلَةً فِى أَغْلالِها الْحَرِيرِيةِ ، ذُخْرًا لِمَأْدُبَةٍ أُخْرَى . »



١٤ – قِصَّةُ الْعَنْكَبِ الْحَزِينِ

وَلَمَّا انْتَهَى «صَفاءُ» مِنْ قِراءَةِ هٰذا الْفَصْلِ الْمُمْتِعِ ، أُعْجِبَ أَخَواهُ بِدقَّةِ ما يَحْوِيهِ مِنْ بَراعَةِ الْوَصْفِ ، وَحُسْنِ الْأَداء .

فَقالَ «أَبُو صَفاءٍ» :

«لَقَدْ ذَكَرْتُ قِصَّةً فُكاهِيَّةً ، قَرَأْتُها – مُنْذُ أَعْوامٍ – فِي كِتابٍ عِلْمِيٍّ ، جَليلِ الْقَدْرِ ، عُنْوانُهُ : «فُصُولٌ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ» ، وَلَمْ أَنْسَ رَوْعَةَ هٰذِهِ الْقِصَّةِ إِلى الْيَوْمِ . وَلَعَلِّي قَدْ أَحْضَرْتُ مَعِي هٰذا السِّفْرَ النَّفِيسَ – فِي جُمْلَةِ ما أَحْضَرْتُهُ مِنَ الْكُتُبِ قُبَيْلَ سَفَرِي – فَما أَحْسَبُنِي نَسِيتُهُ .»

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو صَفاءٍ» إِلَى مَكْتَبَتِهِ الْحافِلَةِ ، وَأَلْقَى عَلَيْها نَظْرَةً واحِدَةً : فَرَأَى الْكِتابَ فِي مَكانِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ . وَما إِنْ أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ ، حَتَّى أَبْصَرَ وَرَقَةً بَيْضاءَ فِي ثَنايا صَحائِفِهِ ؛ وَكانَ قَدْ وَضَعَها أَمامَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى بَعْدَ السِّتِّينَ وَالْمِائَتَيْنِ ، لِتُذَكِّرَهُ بِمَوْضِعِ الْقِصَّةِ الْمُعْجِبَةِ : «قِصَّةِ الْعُكَّاشِ» – ذٰلِكَ الْعَنْكَبِ الْحَزِينِ – مِنَ الْكِتابِ .

فَالْتَفَتَ «أَبُو صَفاءٍ» إِلَى بَنِيهِ قائِلًا :

« لَقَدْ قَرَأْتُ قِصَّةَ « أَبِى خَيْثَمَةَ » أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً ، فَلَمْ تَبْلَ جِدَّتُها ، وَلَمْ تَخْلُقْ بَهْجَتُها وَسِحْرُها وَأَنا أُوصِيكُمْ – أَيُّها النُّجَباءُ – أَنْ تُنْعِمُوا النَّظَرَ فِى دَقائِقِها ، بَعْدَ أَنْ يَتْلُوَها عَلَيْنا صَفاءُ . »

فَأَخَذَ « صَفاءُ » الكِتابَ – بِيَمِينِهِ – وَقَرَأَ عَلَى إِخْوَتِهِ مايَأْتِى:

١٥ – حَقِيقَةٌ فِى فُكاهَةٍ

« دَخَلْتُ غابَةً باسِقَةَ الْأَشْجارِ ، يَجرِى فِيها نَهْرٌ مُتَعَرِّجٌ . فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ ، شاهَدْتُ عَلَى إِحْدَى ضِفَّتَيْهِ عَنْكَباً ، أَسْمَرَ اللَّوْنِ ، جالِساً عَلَى حَجَرٍ ، يُنَظِّفُ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ ، كَما يَفْعَلُ الذُّبابُ . وَهُوَ نَحِيفٌ ، خائِرُ القُوَى . فَرَأَيْتُ أَنَّ أَفْضَلَ ما أَفْتَتِحُ بِهِ الْحَدِيثَ مَعَهُ ، السُّؤالُ عَنْ صِحَّتِهِ . فَقُلْتُ لَهُ : « أَراكَ مُنْحَرِفَ الْمِزاجِ ، فَما يُؤْلِمُكَ ؟ »

فَقالَ : « إِنِّى مَرِيضٌ ، وَخائِفٌ ، وَقَلِقٌ . »

فَقُلْتُ : « ما الْخَبَرُ ؟ وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِى قَطُّ أَنَّ عَنْكَباً مِثْلَكَ يَمْرَضُ وَيَخافُ ، وَقَدْ خُصِصْتَ بِقُوَّةٍ لَمْ يُخَصَّ بِها سِواكَ ! »

فَقالَ الْعَنْكَبُ : « وَهٰذِهِ إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ . فإِنَّ النَّاسَ يَظُنُّونَ الظُّنُونَ ، وَيَسْتَنْتِجُونَ النَّتائِجَ ، مِنْ مُقَدِّماتٍ فاسِدَةٍ لا تُنْتِجُ شَيْئاً . وَلِذٰلِكَ فَإِنِّى أَظُنُّ أَنَّ قِصَّتِى تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ ، فَتَرَى الْأُمُورَ عَلَى حَقِيقَتِها . أَتَعْلَمُ أَنَّنا – مَعْشَرَ الْعَناكِبِ – مِنْ أَكْثَرِ الْمَخْلُوقاتِ اجْتِهادًا ، وَأَوْسَعِهِمْ حِيلَةً ؟ فَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ طارَ فِى الْهَواءِ بِغَيْرِ جَناحٍ . نَعَمْ ! إِنَّ الْخَفافِيشَ تَطِيرُ ، وَلا جَناحَ لَها . وَلٰكِنَّ بَيْنَ قَوائِمِها وَظَهْرِها أَغْشِيَةً . وَمَعَ حِرْمانِنا تِلْكَ الْأَغْشِيَةَ ، تَمَكَّنَّا مِنْ رُكُوبِ الْهَواءِ ، وَلَمْ يُشارِكْنا فِى ذٰلِكَ إِلَّا الْإِنْسانُ . لٰكِنَّا سَبَقْناهُ بِقُرُونٍ كَثِيرَةٍ . قُلْ لِى : مَتَى اسْتَطاعَ قَوْمُكَ الطَّيَرانَ ؟ »

فَقُلْتُ : « فِى الْعامِ السَّابِعِ بَعْدَ التِّسْعِمائَةِ وَالْأَلْفِ . »

فَقالَ : « هٰكَذا ظَنَنْتُ . أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ رَكِبْنا الْهَواءَ ، قَبْلَ عَصْرِ الْعُمْرانِ ! وَإِلَيْكَ شَرْحَ قِصَّتِى :

حَدَثَ – مُنْذُ سَنَتَيْنِ – أَنَّ أُمِّى كانَتْ جالِسَةً فِى عُقْرِ بَيْتِها ، فَأَتاها الطَّلْقُ ، وَجَعَلَتْ تَبِيضُ بَيْضَها ، واحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى ، وَظَلَّتْ تَبِيضُ إِلَى أَنْ بَلَغَ عَدَدُ ما باضَتْهُ – فِى ذٰلِكَ الْيَوْمِ –

ثَلاثَمِائَةِ بَيْضَة . وَخافَتْ أَنْ تَتَفَرَّقَ الْبُيُوضُ ، فَلا يَعُودَ لَها سَبِيلٌ إِلَيْها . فَجَعَلَتْ تَغْزِلُ الْخُيُوطَ مِنْ مَغازِلِها : وَهِيَ سِتُّ أَنابِيبَ فِي ذَنَبِها ، تُفْرِزُ الْخُيُوطَ الْحَرِيرِيَّةَ الدَّقِيقَةَ ، الَّتِي تُسَمُّونَها : نَسِيجَ الْعَنْكَبُوتِ ، وتَضْرِبُونَ بِها الْمَثَلَ فِي الوَهَنِ لِدِقَّتِها . وَهِيَ - لَوْ جُمِعَ بَعْضُها إِلَى بَعْضٍ - لَصارَتْ أَمْتَنَ مِنْ أَسْلاكِ الْحَدِيدِ! فَأَفْرَزَتْ كَثِيرًا مِنْ هٰذِهِ الْخُيُوطِ ، وَلَفَّتْ بَيْضَها بِها ، وكَرَّرَتْ لَفَّهُ ؛ حَتَّى صارَتِ الْبُيُوضُ كُلُّها كُرَةً كَبِيرَةً تُحِيطُ بِها خُيُوطٌ صُفْرٌ ، كَالزَّغَبِ الْواهِي ، أَوْ كَرِيشِ النَّعامِ . وَلَمَّا تَمَّ لَها ذٰلِكَ ، حَمَلَتْ هٰذِهِ الْكُرَةَ بَيْنَ فَكَّيْها ، وَخَرَجَتْ مِنْ بَيْتِها قاصِدَةً أَنْ تَصْعَدَ بِها إِلَى مَكانٍ عالٍ ، لا يَصِلُ إِلَيْهِ ماءُ النَّهْرِ إِذا فاضَ فِي الشِّتاءِ . وَبَعْدَ تَعَبٍ كَبِيرٍ ، وَجَهْدٍ عَنِيفٍ ، وَصَلَتْ إِلَى الْمَكانِ الْعالِي ، وَوَضَعَتْ بُيُوضَها فِي ثَقْبٍ غائِرٍ بَيْنَ الصُّخُورِ ، ثُمَّ عادَتْ إِلَى بَيْتِها عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ .

وَلَوْ رَآنا - أَنا وَأَخَواتِي - أَحَدٌ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَالْأَيَّامِ التَّالِيَةِ ، لَظَنَّنا بُزُورًا دَقِيقَةً ، اجْتَمَعَ عَلَيْها زَغَبُ الْحَرِيرِ .

وَمَعَ ذٰلِك لَمْ يَرْتَحْ بالُنا دَقِيقَةً مِنَ الْخَطَرِ . فَفِى ذاتِ يَوْمٍ زارَنا طائِرٌ : قَبِيحُ المَخْبَرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبِيحَ الْمَنْظَرِ ، مُبَرْقَشٌ بالزُّرْقَةِ وَالصُّفْرَةِ ، لِكَىْ يُخْفِىَ شَراسَةَ أَخْلاقِهِ . وَجَعَلَ يُفَتِّشُ بَيْنَ الشُّقُوقِ وَالنَّخارِيبِ ؛ وَيَسْتَخْرِجُ الدِّيدانَ والْحَشَراتِ مِنْها ، ويَأْكُلُها . وَلِحُسْنِ حَظِّنا ، كانَتْ أُمُّنا قَدْ أَخْفَتْنا فِى نُقْرَةٍ عَمِيقةٍ ؛ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْنا . وَمَرَّ بِنا فَصْلُ الشِّتاءِ وَنَحْنُ بَيْضٌ ؛ ثُمَّ خَرَجْنا مِنْ بُيُوضِنا ، فِى الرَّبِيعِ ، وَلَمْ نَخْرُجْ مِنْها دِيداناً ، بَلْ خَرَجْنا عَناكِبَ دَفْعَةً واحِدَةً . وَهٰذا أَمْرٌ يَسْتَرْعِى الِانْتِباهَ ؛ فَإِنَّ الْفَراشَ وَالنَّحْلَ ، وَالْخَنافِسَ ، تَخْرُجُ كُلُّها دِيداناً صَغِيرةً ، ثُمَّ تَمُرُّ بِأَطْوارٍ مُخْتَلِفَةٍ ، حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ كَمالِ النُّمُوِّ . أَمَّا نَحْنُ فَمُمْتازُونَ عَلَيْها كُلِّها : لِأَنَّنا نَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضِ عَناكِبَ كامِلةً ، كَما يَخْرُجُ أَصْدِقاؤُنا الْجَنادِبُ. خَرَجْنا مِنْ بُيُوضِنا ؛ وَلٰكِنَّنا كُنَّا صِغارًا كَرُءُوسِ الدَّبابِيس . ولمَّا خرجْنا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرَى الْأَشْياءَ واضِحَةً : لِأَنَّنا كُنَّا مُحاطاتٍ بِأَغْشِيَةٍ دَقِيقَةٍ ، صِيانَةً لَنا كَما تُصانُ اللَّآلِئُ فِى أَصْدافِها !

وَلَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ مَزَّقَ كِيسَهُ ، وَخَرَجَ مِنْهُ . فَلَمَّا انجلَتْ عَيْنايَ ، ذَهَلْتُ عَنْ نَفْسِي، بِما رَأَيْتُهُ حَوْلِي مِن اتِّساعِ الوادى الَّذِي وُجِدْتُ فِيهِ ... وَكَبِرَ كُلُّ ما حَوْلى بالنِّسْبَةِ إِلَيَّ ؛ فَكُنْتُ أَرَى النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ فَأَحْسَبُها شَجَرَةً كَبِيرَةً. لٰكِنَّنِى سُرْعانَ ماشُغِلتُ عَنْ ذٰلِكَ ، بِما رَأَيْتُهُ حَوْلى مِنْ كَثْرَةِ أَخَواتِى اللَّواتِى خَرَجْنَ مِنْ بُيُوضِهِنَّ مِثْلِي . وَبَيْنا أَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ سَمِعْتُ صَوْتاً يُخاطِبُنا ، بِلَهْجَةِ الْآمِرِ النَّاهِي . فالتَفَتُّ ، وَإِذا الْمُتَكَلِّمُ :عَنْكَبَةٌ كبيرَةٌ ، جالِسَةٌ فِى بابِ بَيْتِها ، وَهِيَ أَمامَنا فَأَصْغَيْنا إِلَيها ؛ فَقَصَّتْ عَلَينا خَبَرَ ما أَصابَها مِنَ الْعَناءِ بِسَبَبِنا . أَمَّا أَنا فَلَم يُذْهِلْنِى خَبَرُها ، قَدرَ ما أَذْهَلَنى شَىءٌ رأَيتُهُ تَحتَها ، كَأَنَّهُ عَنْكَبٌ مَيِّتٌ .

فَلَمَّا أَتَمَّتْ حَدِيثَها ، قُلْتُ لَها :

« ما هٰذا الَّذِى أَراهُ تَحْتَ أَقْدامِكِ ، يا أُمَّاهُ ؟ »

فَقالَتْ : « هٰذا أَبُوكَ ، يا وَلَدِى ! »

فَقُلْتُ : « إِنَّنى أَراهُ مَيِّتاً ، لا حَراكَ بِهِ ! »

فَتَبَسَّمَتْ ، وَقالَتْ : « نَعَمْ ، هُوَ مَيِّتٌ . فَقَدِ انْقَضَتْ أَيَّامُ

السُّرُورِ ، وَلَمْ يَعُدْ لى بِهِ أَرَبٌ ؛ فقَتَلْتُهُ ، وَمَصَصْتُ دَمَه وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا جِلْدُهُ ، وَسَأَجْعَلُهُ فِراشاً لى ، وَهُوَ فِراشٌ وَثِيرٌ فى لَيْلَةٍ نَدِيَةٍ مِثْلِ هٰذِهِ ! »

فَقُلْتُ لَها : « هَلْ أَتَزَوَّجُ متَى كَبِرْتُ ، وآكُلُ زَوْجِى ؟ »

فقالَتْ : « لا . لِأَنَّكَ أَنْتَ ذَكَرٌ ، يا وَلَدِى

وستأْكُلُكَ زَوْجَتُكَ ، كَما أَكَلْتُ أَنا أَباكَ

وَلا تَدْنُ مِنِّى الْآنَ ؛ لأَنِّى أَحْياناً آكُلُ أَوْلادى أَيْضاً . »

* * *

هٰذا أَوَّلُ نَبإٍ سَمِعْتُهُ فِى حَياتى ، فَما أَتْعَسَ هٰذِهِ الْحَياةَ ! هَلْ تَتَصَوَّرُ حياةً أَتْعَسَ مِنْها ؟ »

فقلتُ لهُ ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ أَنَّهُ عَنْكَبٌ لا عَنْكَبَةٌ :

« الْآنَ عَرَفْتُ : لماذا أَنْتَ خائِفٌ ، كاسِفُ الْبالِ ! »

فَقالَ : « أَلا تُرِيدُ أَنْ تَسْمَعَ تَتِمَّةَ قِصَّتِى ؟ »

فَقُلْتُ : « بَلَى : هاتِ ما عِنْدَكَ . »

فَقالَ : « حِينَما أَنْبأَتْنا أُمى أَنَّها تَأْكُلُ أَوْلادَها ، أَطْلَقْتُ

أَرْجُلِي لِلرِّيحِ ، وَهَرَبْتُ مِنْ وَجْهِها نازِلًا نَحْوَ النَّهْرِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إلى مائِهِ ، فوجدْتُ أَنَّنى أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْشِىَ عَلَى الْماءِ ، كَما أَمْشِى عَلَى الْيابِسَةِ ، فَسُرِرْتُ بِذٰلِكَ جِدًّا . »

فقُلْتُ له : « هٰذا أَمْرٌ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُه . »

فَقالَ : « إِنَّك لا تَعْلَمُ مِقْدارَ ما نَسْتَطِيعُهُ ، إذا اضْطُرِرْنا إِلَيْهِ . نَعَمْ ، لَيْسَ كُلُّ الْعَناكِبِ يَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّ بعْضَها يَسْتَطِيعُهُ ، وَأَنا مِنْهُم . ومِنْ أَنْسِبائِنا نَوْعٌ يَغُوصُ فى الْماءِ ، وَيَسْكُنُ فى فُقَّاعَةٍ منَ الْهَواءِ ؛ وَنَوعٌ يَثِبُ عَلَى الْأَرْضِ ، مِثْلَ الْقُنْغُرِ . ولا غَرابَةَ فِى مَشْيِنا عَلَى الْماءِ ، فَإِنَّ بَيْنَنا وَبَيْنَ السَّراطِينِ نَسَباً ، وَإِنْ كانَ بَعِيدًا . »

فَقُلْتُ لَهُ : « أَصَبْتَ ، فَإِنَّكَ تُشْبِهُ السَّرَطانَ فى شَكْلِكَ . »

فَقالَ : « نَعَمْ . ولٰكِنَّ السَّرَطانَ لا يَكْتَفِى بثَمانِى أَرْجلٍ مثلَنا ، بَلْ لَهُ عَشْرُ أَرْجلٍ . ولماذا تَقْطَعُ عَلَيَّ الْحَديثَ ؟ دَعْنِى أُتَمِّمْ قِصَّتِي : لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنِى أَمْشِى عَلَى وَجْهِ الْماءِ بادَرْتُ إِلَى أَقْرَبِ قَصبَةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْسُجُ بَيْتاً لِنفْسِى ، لِكَىْ أَجْعَلَهُ مِصْيَدَةً

لِلذُّبابِ . وَقَبْلَ أَنْ أُتِمَّهُ ، مَشَيْتُ عَلَى قَصَبَةٍ ، فَوَجَدْتُ عَلَيْها حَشَرَاتٍ صَغِيرَةً ، خُضْرًا ، خالِيَةً مِنَ الْأَجْنِحَةِ ، فَقَبَضْتُ عَلَى واحِدَةٍ مِنْها ، وَالْتَهَمْتُها ، فاسْتَطْعَمْتُها . فَجَعَلْتُ أَلْتَهِمُ الْواحِدَةَ بَعْدَ الْأُخْرَى ، حَتَّى انْتَفَخَتْ بَطْنِي ، وَشَعَرْتُ كَأَنَّهُ كادَ يَنْشَقُّ . »

فَقُلْتُ لَهُ : «كَيْفَ كُنْتَ تَلْتَهِمُها ؟ أَكُنْتَ تَبلَعُها بَلْعاً ؟ »

فَقالَ : «كَلَّا ! بَلْ كُنْتُ أَشُقُّ ظَهْرَها مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْها ، وَأَمْتَصُّ دَمَها ، فَلا أُبْقِي فِي جِسْمِها شَيْئًا غَيْرَ جِلْدِها . وَلَمَّا شَبِعْتُ ، عُدْتُ إِلَى بِناءِ بَيْتِي ، فَأَتْمَمْتُهُ . وَجَلَسْتُ أَتَرَقَّبُ وُقُوعَ الذُّبابِ ، فَوَقَعَ فِيهِ ذُبابٌ كَثِيرٌ . فَأَكَلْتُ وَسَمِنْتُ جِدًّا ، حَتَّى كُنْتُ أُضْطَرُّ إِلَى أَنْ أَخْلَعَ جِلْدِي مِرارًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسَعُنِي . وَكَثِيرًا ما كانَتْ تَنْقَطِعُ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ مِنِّي ، وَقْتَ خَلْعِهِ . »

فَقُلْتُ : «كَيْفَ ذلِكَ ؟ أَوَ لَمْ يَكُنْ قَطْعُها مُؤْلِماً ؟ »

فَقالَ : «بَلَى ، كُنْتُ أَتَأَلَّمُ قَلِيلًا ؛ لِأَنَّنا ـ نَحْنُ الْعَناكِبَ ـ لَا نَتَأَلَّمُ مِثْلَكُمْ ، وَلا مِثْلَ الدِّيدانِ ؛ فَإِذا انْقَطَعَتْ رِجْلٌ مِنْ أَرْجُلِنا ، نَبَتَتْ لَنا رِجْلٌ أُخْرَى بَدَلًا مِنْها . . وَقَدْ قُطِعَتِ اثْنَتانِ

مِنْ أَرْجُلِي ، فَنَبَتَ لِي غَيْرُهُما . وَلا داعِيَ لِلْإِطالَةِ فِي تارِيخِ حَياتِي عِنْدَ ذٰلِكَ النَّهْرِ ؛ فَأَدَعُهُ ، وَأَقُصُّ عَلَيْكَ قِصَّةً غَيَّرَتْ مَجْرَى أُمُورِي :

كُنْتُ — ذاتَ يَوْمٍ — جالِساً فِي بَيْتِي ، أَتَرَدَّدُ عَلَى بابِهِ ، داخِلاً خارِجاً ، لَعَلِّي أَلْفِتُ إِلَيَّ ذُبابَةً كَبِيرَةً كانَتْ واقِفَةً عَلَى قَصَبَةٍ أَمامِي . وَبَيْنا أَنا أَنْظُرُ إِلَيْها ، وَأَتَأَمَّلُ جَناحَيْها : إِذا بِالْجَناحَيْنِ سَقَطا عَنْ بَدَنِها بَغْتَةً . وَإِذا بِتِلْكَ الذُّبابَةِ قَدْ صارَتْ — بَعْدَ وُقُوعِ جَناحَيْها — نَمْلَةً كَبِيرَةً ، كَأَقْبَحِ ما يَكُونُ النَّمْلُ . »

فَقُلْتُ لَه : « أَلا تَعْلَمُ أَنَّ مَلِكاتِ النَّمْلِ ، يَرْمِينَ أَجْنِحَتَهُنَّ بَعْدَ زَواجِهِنَّ ؟ »

فَقالَ : « كَلَّا ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ ذٰلِكَ . فَوَقَفْتُ مَدْهُوشاً . وَقَبْلَ أَنْ أُفِيقَ مِنْ دَهْشَتِي ، جَعَلَتِ النَّمْلَةُ تُناجِي نَفْسَها ، وَتَقُولُ : « هَلا ، هَلا . لَقَدْ كانَ الْواجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ جَناحَيَّ يَسْقُطانِ الْيَوْمَ ، فَلا أَبْقَى هُنا فَوْقَ الْماءِ . وَلَوْلا هٰذا الْقَصَبُ الَّذِي يُوصِلُنِي إِلَى الْبَرِّ ، لَقُضِيَ عَلَيَّ . ماهٰذا الَّذِي أَمامِي ؟

هٰذا عَنْكَبٌ ، إِذَنْ آخُذُهُ إِلَى قَرْيَتِي وَآكُلُهُ عَلَى مَهَلٍ ! »

وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما حاقَ بِي حِينَئِذٍ . فَرَمَيْتُ بِنَفْسِي مِنْ بَيْتِي إِلَى الْماءِ ، وَأَخَذْتُ أَسْبَحُ جُهْدِي ؛ وَلَمْ أَبْعُدْ إِلَّا خُطًى قَلِيلَةً ، حَتَّى رَأَيتُ حَرَكةً عَنِيفَةً فِي الْماءِ ، فَالْتَفَتُّ ، وَإِذا بِخُنْفَسَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ خَنافِسِ الْماءِ ، وَقَدْ رَفَعَتْ زُبانَيَيْها ، وَجَدَّتْ فِي أَثَرِي سِباحةً . ونَظَرْتُ أَمامِي أُرِيدُ الْهَرَبَ ، وَإِذا بِي أَرَى دُودَةً كَبِيرَةً مِنَ الدُّودِ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْهُ زُنْبُورُ التِّنِّينِ ، وَعَيْناها كَمِصْباحَيْنِ مُتَّقِدَيْنِ ، سَدَّتْ فِي وَجْهِي مَسالِكَ الْماءِ والْيابِسَةِ . وَلَمْ يَبْقَ أَمامِي إِلَّا الْهَواءُ ، فَوَثَبْتُ إِلَى وَرَقة مِنْ وَرَق زَنْبَقِ الْماءِ . وَلَجَأْتُ إِلَى سَلِيقَةِ أَسْلافِي ، وَأَفْرَزْتُ مِنْ مَغازِلِي السِّتَّةِ — الَّتِي فِي ذَنَبِي — سِتَّةَ خُيُوطٍ حَرِيرِيَّة دَقِيقة ، فَاتَّحَدَتْ مَعاً ، وَطارَتْ فِي الْهَواءِ : خَيْطاً واحِدًا ، بَرَّاقاً كَالْبِلَّوْرِ ؛ فَتَشَبَّثْتُ بِهِ ، وَطِرْتُ فِي مَجارِي الرِّياحِ الَّتِي كانَتْ تُمَدِّدُها حَرارَةُ الشَّمْسِ ، وَتُرسِلُ بِها صُعُدًا . ثُمَّ عَبَثَ بِيَ النَّسِيمُ ، فَحَمَلَنِي إِلَى حَرَجَةٍ (أَشْجارٍ مُجْتَمِعَة) مِنَ الصَّنَوْبَرِ ، وَسارَ بِي فَوْقَها ،

وَفَوْقَ السُّهُولِ الْمُجاوِرَةِ لَها . وَقد رأَيْتُ فِى طَرِيقِى كَثِيراتٍ مِنْ أَخَواتِى ، راكِباتٍ مَناطِيدَها ، وَهِيَ سائِراتٌ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّماءِ . وَلكِنِّى رَأَيْتُ طُيُورًا صَغِيرَةً مِنَ النَّوْعِ المَعْرُوفِ بِالخُطَّافِ ، تَنْقَضُّ عَلَيْها وَتَخْطَفُها . فَقُلْتُ : «وَيْلاهُ ! حَتّى فِى الْهَواءِ لا نَسْلَمُ مِنَ الْأَعْداءِ ؟ وَمَنْ أَرادَ السَّلامَةَ لَمْ يَجِدْها ، وَلَوِ اتَّخَذَ لَهُ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّماءِ . » فَأَطَلْتُ خَيْطِى ، وَجَعلْتُ أَهْبِطُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَى أَنْ وَقَعْتُ عَلَى بَعْضِ الْهَشِيمِ . وَلَمْ أَكَدْ أَصِلُ إِلَيْهِ ، حَتَّى رَأَيْتُ زِنْبارًا ــ كالتِّنِّينِ ــ وَاقِفاً فِى انْتِظارِى . وَنَحْنُ الْعَناكِبَ لا نَخافُ مِنَ الزَّنابِيرِ ، إِذا كُنَّا فِى بُيُوتِنا ، بَلْ نَحْتالُ عَلَيْها ، وَنَنسُجُ حَوْلَها خُيُوطَنا ، حَتَّى نَمْنَعَها مِنَ الْحَرَكَةِ . ثُمَّ نَمُصُّ دَمَها ــ وَهِيَ كَبيرةٌ ، كَثِيرَةُ الْغِذاءِ ــ فَنَقْتاتُ بِها أَيَّاماً . وَأَمَّا إِذا رَأَتْنا خارِجَ بُيُوتِنا فإِنَّها تنتقِمُ مِنا . فيَهجُمُ الزِّنْبارُ عَلَى الْعَنْكَبَةِ ، وَيَقْبِضُ عَلَيها بفَكَّيهِ ، وَيَحمِلُها إلى بَيتِهِ وَيأْكُلُها دَفْعَةً واحِدَةً .

وَلَمْ تَخُنِّى الْحِيلَةُ ، فَقَطَعْتُ خَيْطِى ، وَٱرْتَمَيْتُ فِى الْهَشِيمِ

كَقِطْعَةٍ مِنَ الْحَجَرِ. فَوَصَلْتُ إِلَى أَسْفَلِهِ ، وَقَدْ شَلَّ الْخَوْفُ أَعْصابِى.

وَأَبْرَقَتِ السَّماءُ وَأَرْعَدَتْ - فِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ - وَسَقَطَ بَرَدٌ كَثِيرٌ. وَقُمْتُ - فِى الصَّباحِ : وَإِذَا الرِّيحُ تَهُبُّ بارِدَةً ، وَالسَّماءُ مُغَطَّاةٌ بِالسُّحُبِ. فَصَغُرَتْ نَفْسِى فِى عَيْنَىَّ ، وَشَعَرْتُ بِوَحْدَةٍ وَوَحْشَةٍ. فَصَعِدْتُ إِلَى رَأْسِ الشَّجَرَةِ الَّتِى كُنْتُ فِيها ، وأَفْرَزْتُ الْخُيُوطَ مِن مَغازِلِى ، وَصَعِدتُ بِها إِلَى الْجَوِّ ، فَساقَتْنِى الرِّياحُ ، وَرَمَتْنِى عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ ، فِى الْمَكانِ الَّذِى قَضَيْتُ فِيهِ زَهْرَةَ صِباىَ. وَاعْتَدَلَ الْهَواءُ - حِينَئِذٍ - وكُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ أَشُدِّى ، فَتاقَتْ نَفْسِى إِلَى زَوْجَةٍ تَكُونُ مَعِى.

وَقُلْتُ لِنَفْسِى : « مالَكِ وَلِلزَّوْجَةِ ؟ وأَنْتِ تَعْلَمِين عاقِبَةَ أَمْرِكِ مَعَها ؟ »

فَقالَتْ لِى : « ما الْعَمَلُ ، والْمَقْدُورُ قَهَّارٌ ؟ ! »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « الْعَنْكَبُ » ، قائلًا :

« وَقَضَينا شَهْرَ الْعَسَلِ . . وَالآنَ حُمَّ الْقَضاءُ ! »

وَكانَ يَقُولُ ذٰلِكَ وَهُوَ يَنْظُرُ - يَمْنَةً وَيَسْرَةً - كَالْمُسْتَجِيرِ الْخائِفِ مِنْ خَطَرٍ يُوشِكُ أَنْ يَدْهَمَهُ !

١٦ ـ مَصْرعُ الْعَنْكَبِ الْحَزِينِ

وَبَيْنا هُوَ كَذٰلِكَ ـ وَأَعْضاؤُهُ تَرْتَجِفُ خَوْفاً ، وَأَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَدْهُوشاً ـ إِذْ خَرَجَتْ عَنْكَبَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْغارِ ، وَوَثَبَتْ عَلَيْهِ فَحاوَلَ دَفْعَها عَنْهُ ؛ وَلٰكِنَّها أَمْسَكَتْ بِهِ ، وَخَطِفَتْ أَنْفاسَهُ .

وَفِى أَقَلَّ مِنْ خَمْسِ دَقائِقَ ، تَرَكَتْهُ جِلْدًا خاوِياً ! . . . »

١٧ ـ الْخاتِمَةُ

وَلَمَّا انْتَهَى « صَفاءٌ » مِنْ قِراءَةِ هٰذِهِ الْمَأْساةِ ، حَزِنَ « صَفاءٌ » وأُسْرَتُهُ لِمَصْرَعِ الْعَنْكَبِ التَّاعِسِ ، وَتَأَلَّمُوا لِخاتِمَتِهِ الْمُفَزِّعَةِ .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ مُتَعاقِبَةً ، وَلٰكِنَّ الْأُسْرَةَ لَمْ تَنْسَ هٰذِهِ الْقِصَّةَ الرَّائِعَةَ ، الَّتِي مَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ ، وَسَحَرَتْ أَلْبابَهُمْ ، وَكَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ آفاقٍ كانَتْ مَسْتُورَةً عَنْهُمْ مِنَ الْمَعارِفِ وَالْعُلُومِ

القصة العاشرة : « النحلة العاملة »

محفوظات

قالَ «أَبُو نُواسٍ» يَصِفُ الْعَنْكَبَ :

وَقانِصٍ مُحتَقَرٍ ذَميمِ ... كُدْرِيِّ اللَّوْنِ ، أَغْبَر ، قَتِيمِ

مُشْتَبِكِ الأَعْجازِ بِالْحَيْزُومِ ... وَمَخْرَجِ اللَّحْظَةِ بِالْخَيْشُومِ

أَضْيَقَ أَرْضاً مِنْ مَقامِ الْمِيمِ ... أَوْ نُقْطَةٍ تَحْتَ جَناحِ الْجِيمِ

لَيْسَ بِقِعْدِيدٍ ، وَلا نَؤُومِ ... وَلا - عَنِ الْحِيلَةِ - بِالسَّؤُومِ

لا يَخْلِطُ الْهِمَّةَ بِالتَّنْوِيمِ

قانِصٌ : صائِدٌ - كُدْرِيُّ اللَّوْنِ : مُغْبَرٌّ غَيْرُ صافٍ - قَتِيمٌ : مائِلٌ إِلَى السَّوادِ .

الأَعْجازُ : مُؤَخَّراتُ الأَجْسامِ - الْحَيْزُومُ : الصَّدْرُ - مَخْرَجُ اللَّحْظَةِ : الْعَيْنُ - الْخَيْشُومُ : أَقْصَى الأَنْفِ .

مَقامُ الْمِيمِ : الدَّائِرَةُ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْها رَأْسُ حَرْفِ الْمِيمِ .

الْقِعْدِيدُ : الْعاجِزُ الْكَثِيرُ الْقُعُودِ - النَّؤُومُ : النَّائِمُ - السَّؤُومُ : السَّرِيعُ الْمَلَلِ .

: هذا الْحَيَوانُ الَّذِى يَعيشُ مِمَّا يَصْطادُهُ ، تَحْتَقِرُهُ
اللِّسانُ ، وَفِى لَوْنِهِ غُبْرَةٌ تَجْعَلُهُ أَقْرَبَ إِلَى السَّوادِ .
تَداخِلُ الْجَسَدِ ، حَتَّى إِنَّ صَدْرَهُ لَيَشْتَبِكُ بِمُؤَخَّرِ
عَيْنُهُ تَشْتَبِكُ بِأَنْفِهِ .
صَغِيرٌ ضَئِيلٌ ، حَتَّى لَتَرَى رَأْسَ الْمِيمِ أَوْسَعَ مِنْه .
لَيْسَ بِالْخامِلِ الْقاعِدِ ، بَلْ يَعْمَلُ وَيَسْعَى جاهِدًا ،
إِلَيْهِ الْمَلَلُ مِنْ طَلَبِ الْحِيلَةِ ، وَلا يَشْغَلُهُ النَّوْم
لْهِمَّةِ .
الْعَنْكَبَ بِأَنَّهُ هُمامٌ ، دائِبٌ عَلَى الْعَمَلِ ، غَيْرُ مُتَراخٍ
بِالْواجِبِ عَلَيْهِ ، وَلا مُخْلِدًا إِلَى الْبَطالَةِ .

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٧١٩٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4180 - 6	ISBN

٧ / ٩٣ / ٤٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الأطفال

بقلم
كامل كيلاني

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكي .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبوري . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ علي بابا .
٤ عبد الله البري وعبد الله البحري .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحري . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندي . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ في غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ في بلاد العجائب .
٣ القصر الهندي . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ في الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر في بلاد الأقزام .
٢ « في بلاد العمالقة .
٣ « في الجزيرة الطيارة .
٤ « في جزيرة الجياد
٥ روبنسن كروزو .

قصص عر

١ حي بن يقظان . ٢ أبو

قصص تمثي

١ الملك النجار .

دار المعارف